القطاع المصرفي وسقوط لبنان

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

مثلما لم يوجد في العام 1969 من يستوعب النتائج المترتّبة عن توقيع اتفاق القاهرة، باستثناء العميد ريمون أدّه، لا يوجد في السنة 2019، التي تشرف على نهايتها، سوى قليلين يدركون المعنى العميق لانهيار القطاع المصرفي اللبناني. ما نشهده حاليا في "عهد حزب الله"، الذي زاد عمره على ثلاث سنوات، هو انهيار آخر لجزء من لبنان... أو لما بقي من لبنان.

كان القطاع المصرفي بنظامه الحر، الذي احتاج بناؤه سنوات طويلة، خطّا أساسيا في الدفاع عن لبنان. هناك من يعتبر أنّه بقي خط الدفاع الأوّل عنه في ضوء تشابك المصالح بين كلّ فئات المجتمع من أجل المحافظة على مصارف بيروت كجاذبة للأموال والاستثمارات العربية، وغير العربية، وأموال اللبنانيين العاملين في الخارج، ولعب دور الملجأ الآمن لها. لذلك كان ذلك التنوّع في تركيبة كلّ مصرف من المصارف، وهو تنوّع ساهم فيه العرب الأغنياء الذين وجدوا موقعا قويّا لهم في غير مصرف لبناني. لذلك أيضا كانت هناك دائما مصارف أجنبية تعمل انطلاقا من لبنان وبيروت بالذات. بقي معظم هذه المصارف يعمل في أحلك الظروف...

بقيت المصارف تدافع عن لبنان وساعدت في صموده بعد توقيع اتفاق القاهرة المشؤوم الذي لم يكن سوى كارثة. من يدافع حاليا عن المصارف التي يوجد من يريد تحميلها أعباء ما حل ببلد لم يعد فيه صاحب الوديعة قادرا على التصرّف بها كما يشاء؟

من يهاجم المصارف ويدعو إلى استعادة أموال منها، يعتدي على كلّ القيم التي قام عليها لبنان. يحدث ذلك في وقت لا يوجد من يريد مواجهة الحقيقة ويفضّل الهرب منها عن طريق رفع الشعارات الطنانة التي لا فائدة تذكر منها. هل صدفة أن يلتقي عند مهاجمة المصارف بقايا حزب شيوعي أكل الدهر عليه وشرب، وأحزاب طائفية ومذهبية تمتلك ميليشيات مسلّحة لا ولاء لها للبنان... باعتراف قادتها؟

من يدافع حاليا عن النظام المصرفي الذي فيه ودائع لكل اللبنانيين من كل الطبقات والمذاهب والطوائف، والذي يختزل في الوقت ذاته جزءا من ثقافة الحياة والحيوية اللبنانية والمبادرة الفردية التي تميّز بها أهل البلد؟

ينسى رافعو هذه الشعارات الطنانة، من الذين ينتمون إلى ميليشيات مذهبية لا تدرك أن ليس لدى إيران ما تصدّره إلى خارج حدودها غير الغرائز المذهبية، أن لبنان كان حالا فريدة في المنطقة بسبب نظامه الليبرالي من جهة، ومصارفه من جهة أخرى. هذا ما مكّن لبنان من الاستفادة إلى أبعد الحدود من كلّ الأحداث التي مرّ فيها الشرق الأوسط بعد 1948 حين أعلن قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين مع كل ما لحق من ظلم بالشعب الفلسطيني... وبعد سلسلة الانقلابات العسكرية في مصر وسوريا والعراق التي رافقتها تأميمات. كانت هذه التأميمات تجفيفا للغنى الحقيقي داخل مجتمعات عربية كانت مصر تمثل طليعتها.

كان أكثر ما أفاد لبنان في تلك المرحلة، مرحلة خمسينات القرن الماضي وستيناته، هروب كبار رجال المصارف الفلسطينيين والسوريين إليه، إضافة إلى عدد كبير من رجال الأعمال. كذلك هربت كفاءات مصرية ثمّ عراقية مع رساميل كبيرة، في وقت كانت بيروت تمثل المكان الذي يأتي إليه أغنياء الخليج كما يرسلون إليه أبناءهم للتعلّم في جامعاته، في مقدّمها الجامعة الأميركية. ينسى كثيرون أن الجامعة الأميركية تأسست في 1866، أي قبل ما يزيد على قرن ونصف قرن!

ظلّ النظام التعليمي في كلّ وقت مصدر غنى للبنان. ما ينطبق على النظام التعليمي ينطبق على النظام المصرفي الذي تحوّل في مرحلة ما بعد بداية الاضطرابات الداخلية إلى حصن منيع حال دون سقوط لبنان، حتّى عندما انهار سعر صرف الليرة اللبنانية في السنوات الأخيرة من عهد الرئيس أمين الجميّل وتلك التي تلتها في العام 1988.

لم يعد هناك حاليا ما يدافع به لبنان عن نفسه. في حال استمرّ الوضع على ما هو عليه، ستكون هناك مجاعة في لبنان. هناك نحو 23 ألف موظف يعملون في المصارف اللبنانية. وهناك 120 ألف موظف يعملون في مؤسسات خاصة صغيرة وكبيرة. هؤلاء مهددون بالصرف في حال استمرّ الوضع الاقتصادي في التدهور. معظم هؤلاء لديهم قروض عليهم تسديدها للمصارف. كيف سيسددون هذه القروض التي لها علاقة بالسكن أو شراء سيارة، فضلا عن أمور أخرى في حال توقف النشاط التجاري في البلد؟

يبقى سؤال. هل وضع لبنان ميؤوس منه؟ الجواب أقرب إلى نعم من أيّ شيء آخر. لا تزال هناك فرصة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، خصوصا بالنسبة إلى القطاع المصرفي الذي ستحتاج إعادة الثقة به وبلبنان عشرات السنوات في أقلّ تقدير. أين الفرصة؟ الفرصة في تشكيل حكومة اختصاصيين على وجه السرعة. وحدها حكومة من هذا النوع التي يستطيع رئيسها التحدث إلى الأميركيين والعرب والأوروبيين من أجل إيجاد آلية تُخرجُ لبنان من الدائرة المغلقة التي يدور فيها وهي دائرة لن تأخذه سوى إلى الدمار.

هناك عهد اسمه "عهد حزب الله" شارف على نهايته. تكمن خطورة هذا العهد في أنّه أزال خطا، ربّما كان وهميا، رسمه المجتمع الدولي، على رأسه الولايات المتحدة، والعرب القادرون ماليا. كان هذا الخط يفصل، ولو نظريا، بين الحكومة اللبنانية من جهة، و"حزب الله" الذي يتحكّم بمفاصل الدولة اللبنانية وسياستها الخارجية من جهة أخرى. ما ساهم في إزالة الخط أيضا تدخل الحزب، الذي ليس سوى لواء في "الحرس الثوري" الإيراني، في سوريا والعراق واليمن.

لم يعد هذا الخط الوهمي موجودا، أقلّه من وجهة نظر واشنطن والعرب القادرين على مساعدة لبنان. فوق ذلك كلّه، اكتشف الأميركيون والأوروبيون والعرب أن لبنان لا يريد أن يساعد نفسه، لا عن طريق تشكيل حكومة "محترمة"، ولا عن طريق اختيار شخصية ما زالت قادرة على مدّ الجسور مع الخارج. على العكس من ذلك، هناك من يريد تصفية حساباته مع سعد الحريري في هذه الظروف بالذات. كان يمكن لمثل هذا التوجّه أن يكون منطقيا لو أمكن إيجاد شخص على رأس الحكومة يكون قادرا على فتح قنوات اتصال ذات جدوى مع واشنطن والعواصم الأوروبية والعربية. لماذا لا يكون بحث عن مثل هذا الشخص في حال كان مطلوبا منع عودة سعد الحريري إلى موقع رئيس مجلس الوزراء؟

دافع النظام المصرفي، مع عدم تجاهل حصول تجاوزات كثيرة في أحيان كثيرة، عن لبنان المتنوّع والمزدهر الذي عرفناه والذي كاد يذهب ضحية توقيع اتفاق القاهرة قبل نصف قرن.

من يدافع حاليا عن النظام المصرفي الذي فيه ودائع لكل اللبنانيين من كل الطبقات والمذاهب والطوائف والذي يختزل في الوقت ذاته جزءا من ثقافة الحياة والحيوية اللبنانية والمبادرة الفردية التي تميّز بها أهل البلد؟

خامنئي وأردوغان المتحالفان

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

أمور عديدة توحد بين الخليفة (السني) رجب طيب أردوغان والخليفة (الشيعي) علي خامنئي. وأمورٌ عديدة أخرى، أيضا، تفرق بينهما، وتجعلهما خصمين لدودين يسعى كل منهما إلى الفتك بعدوه، رغم أن كلّا منهما مضطر لمناصرة الآخر، أحيانا، حين يكون الخطر الذي يهدد وجودهما واحدا، أيّا كان دينُه وجنسه وطائفته، داخليا كان أو خارجيا، سواء بسواء.

فالمعروف أن العنصرية القومية هي المُفرِّق بينهما، والمُشعل لنيران الحروب الدامية بين الفرس والعثمانيين التي كانت تدوم طويلا، ثم تنتهي بخسارة أحد المتقاتليْن، وباحتلال بلاده وإذلال شعبه لعشرات أو مئات السنين.

ويخبرنا التاريخ بأن المذهب في جميع تلك الحروب القومية العنصرية بينهما، كان الغلاف المفضل الظاهري الذي كان يغطي به أجدادُهما تلك الحروب.

ثم مرت على المنطقة مئاتٌ من السنين، من أيام دولة الخلافة الإسلامية الأولى والدولة الأموية ثم العباسية، دون أن يستطيع الدين الواحد أن يذيب العداوة القومية والمذهبية بين الفرس المسلمين، والترك المسلمين، إذ كانت المشاحنات والمعاكسات والمناوشات والمؤامرات لا تتوقف بين الفريقين.

وحين حوّل إسماعيل الصفوي إيران من المذهب السني إلى الشيعي في العام 1501 أصبح العداء علنيا ومسلحا بين الدولتين، خصوصا بعد قيام الصفوي باحتلال غرب إيران وأذربيجان وأرمينيا وأجزاء أخرى من أملاك الدولة العثمانية التي أسسها عثمان الأول سنة 1299.

ومنذ سقوط الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى وانتهاء احتلالها للبلاد العربية والإسلامية ومنها إيران، والحكومات الإيرانية المتعاقبة والحكومات التركية المتتابعة في صراع وخلاف واحتراب معلن، أحيانا، ومَخفيّ أحيانا أخرى.

من هذا السرد التاريخي المختصر يمكن القول إن الولي الفقيه الإيراني خامنئي والسلطان العثماني أردوغان، وهما المختلفان مذهبيا وعنصريا ومصلحيا، وفي الوقت نفسه هما متشابهان في أمور عديدة منها؛ أنهما الوريثان المخلصان لذلك التاريخ الغارق في الدماء، والطامحان المُستقتلان من أجل إعادة الزمن إلى الوراء، وإحياء إمبراطورية الآباء والأجداد، بقوة وإصرار، وأن كلّا منهما يريد أن يقضي على الآخر ليصبح هو وحده خليفة المسلمين، وأن كلا منهما، أيضا، يسعى لقضم نفس الفريسة وضمها لأملاك إمبراطوريته الوليدة، والمتمثلة في دول المنطقة العربية، سوريا والعراق ولبنان ومصر وليبيا واليمن وفلسطين. وما حدث في سوريا بين الخصمين الحليفين من معارك دامية، بواسطة وكلائهما وعملائهما وجواسيسهما، شاهدٌ على ذلك.

ولكن الملاحظ أنهما، رغم كل ما يختزنه كلٌ منهما من ضغينة وبغضاء لصاحبه، يلتقيان ويتعاونان ويتحالفان حين تحكم المصالح العاجلة.

ألا تراهما صديقين أليفين يلتقيان في الدوحة ويتحالفان مع الريال القطري ومع الإخوان المسلمين والقاعدة والدواعش ضد أعدائهما في العراق وسوريا ومصر واليمن والخليج العربي ولبنان؟

والذي يشترك فيه كلاهما، ويوحد بينهما، هو عمى بصريهما وبصيرتيهما، والذي يصور لهما أن احتضان الفاشلين والمكروهين والفاسدين، وتسليحهم وتمويلهم والمراهنة عليهم هو الذي سوف يعينهم على احتلال الدول الآمنة ونهب خيراتها وإذلال شعوبها.

فالخليفة الإيراني متخصص في احتضان الإرهابيين، شيعة وسنة، وفي حماية تجمعاتهم وأحزابهم وميليشياتهم المتمرسة في القتل والحرق والاغتيال والاختلاس، في العراق ولبنان وسوريا واليمن وفلسطين، حتى وهو يعلم علم اليقين بأنهم مكروهون من العراقيين والسوريين واللبنانيين واليمنيين والفلسطينيين.

خامنئي وأردوغان لا يقرآن التاريخ ولا يتأملان الجغرافيا، ولا يريدان أن يتعلما من النكسات والاحتقانات والثورات المعاكسة التي تشتعل ضدهما في الخارج، وفي عقر دار كلّ منهما

وثوراتُ الجماهير الغاضبة في العراق ولبنان وسوريا واليمن دليلٌ على أن وكلاءه، بفسادهم وفشلهم وجرائمهم، تحولوا إلى سبب لاشتعال غضب الجماهير، لا عليهم فقط، بل على وليّهم نفسه، قبل سواه.

ورغم هزائمه في الخارج، ومأزقه في الداخل، ما زال يراهن على الخيول الخسرانة ذاتها، ويخسر الرهان.

وأردوغان هو الآخر، كالولي الفقيه، خبير وشاطر في صناعة الأعداء والحاقدين. فها هو من هزيمة إلى هزيمة، في الداخل والخارج، معا، ولا يتّعظ ولا يعتدل ولا يراجع نفسه قبل فوات الأوان.

فقد راهن بالأمس على الإخوان المسلمين في مصر وسوريا والعراق وفلسطين، وأنفق عليهم أطنانا من أموال الشعب التركي، ثم سقطوا وسقط معهم في مصر وفي سوريا والعراق وفلسطين.

وها هو اليوم يقفز عبر البحار البعيدة ليحمي هياكل آيلة للسقوط في ليبيا، متوهما بأنه قادر على أن يحيي العظام وهي رميم، وبأنه سيَنصُر عصابات الإرهاب الإسلامي على شعبها، ويعينها على حكم ليبيا، طمعا في خيراتها، ورغبة في محاصرة مصر وإسقاطها، والقفز منها إلى دول جوارها، تماما كما فعل حليفه الإيراني حين أراد الالتفاف على السعودية بتحريك وكلائه الحوثيين. وكما احتل العراق وجعله قاعدة لانطلاقه نحو سوريا ولبنان وفلسطين.

وكما كانت النتيجة في اليمن والعراق ولبنان للخليفة الشيعي، فسوف تكون هي نفسَها للخليفة السني في ليبيا وسوريا والعراق وفلسطين.

إنهما لا يقرآن التاريخ ولا يتأملان الجغرافيا، ولا يريدان أن يتعلما من النكسات والاحتقانات والثورات المعاكسة التي تشتعل ضدهما في الخارج، وفي عقر دار كلّ منهما.

لقد أعمى غرور القوة كليهما كما أصاب، قبلهما، حكاما مجانين كثيرين كانت نفوسهم مريضة، وشخصياتهم ضعيفة، ولا يعرفون ماذا تفعل الشعوب بظالميها ومُجوّعيها إذا ما فاض كيلها، وعيل صبرها والأمثلة كثيرة ولا تعد.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk